الخليفة ويعلمه صورة أخذ بغداد ويحسن للمستعصم توفير الخزينة وعدم الصرف على العساكر فوفر فى مرة عشرين ألف مقاتل وأظهر للخليفة انه وفر من مصاريفهم أموالا جسيمة فى بيت المال فأعجبه رأيه ولكونه يحب المال وجمعه فارسل امبراطور المغول أخاه هلاكو الى العراق ومعه جيش جرار فلما علم الخليفة بذلك استيقظ من غفلته وجمع من قدر عليه من الجيوش فلم يقدر عليهم وغرق من عسكره كثير فى نهر الدجلة وقتل أكثرهم وأسروا الخليفة وأولاده ووقع وزيره لعنة الله عليه فى الذل والهوان الى ان مات وعملت جملة قصائد ببغداد منها

ياعصبة الاسلام نوحى واندبى * حزنا على ماتم للمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه * لابن الفرات فصار لابن العلقم

وكان ذلك سنة ١٢٥٨ م الموافقة سنة ٦٥٦ هـ وانتقل بيت الخلافة من بغداد الى مصر فى زمن السلطان بيبرس البندقدارى وكان أولهم المستنصر وصل الى مصر واجتمع بالظاهر بيبرس وأثبت نسبه عند قضاة الشرع وبايعه بالخلافة وأجرى عليه نفقة وليس له من الامر الا اسم الخليفة وأولاده بعده على هذا المنوال

الباب الثانى عشر فى المماليك البحرية

كان ابتداء هذه الدولة فى سنة ٦٤٨ هـ الموافقة سنة ١٢٥١ م وعدد ملوكها ٢٤ ومدة حكمهم ١٣٦ وأول ملوكها عز الدين ايبك زوج شجرة الدر وسبب استيلائه ان الاشرف موسى كان صغيرا وبلغ أهل مصر قدوم التتار للبلاد فاجتمعت الآراء على اقامة عز الدين بمفرده ولما تسلطن شرع فى تحصيل الاموال واستخدام الرجال واستوزر أبا سعيد هبة الله وكان أول قبطى تولى الوزارة وأوجد مكوسا سماها محقوقا ثم ان عز الدين لما صفى له الوقت وتمكن وكثرت عساكره هربت جماعة البحرية الى الشام مع رؤسائهم بيبرس البندقدارى وقلاوون الالفى وغيرهما

واستولى على أموالهم وأبطل ما كان قدره وزيره المذكور من المكوس وغيرها وخطب بنت صاحب الموصل فلما سمعت بذلك زوجته شجرة الدر تغيرت عليه فعزم على قتلها ولما بلغها ذلك خافت على نفسها واتفقت مع محسن أغا الجوهرى على قتله فقتلاه فى الحمام فلما بلغ عماليكه قتله دخلوا على شجرة الدر ليقتلوها فسبقتهم زوجته أم ولده وجواريها فضربوها الى ان ماتت وكان المعز ايبك ملكا شجاعا حسن التدبير والسياسة غير انه كان سفاكا للدماء وكانت مدة سلطنته سبع سنوات تقريبا وفى مدته ظهرت النار بالمدينة فاحرقت المسجد النبوى

﴿سيف الدين قطز﴾

ولما قتل عز الدين قام بالامر بعده ابنه نور الدين على وكان سنه عشرة سنين وجعل الامير قطز نائبه وفى أيامه أخذ التتار بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم كما تقدم وزحفوا على الشام فاستشار الامير قطز الامراء وقبض على الملك ووالدته واخوته واعتقلهم بدمياط ببرج السلسلة بعد ان حكم سنتين فلم يلبث ان جاء الخبر بان هلاكو حفيد جنجيس خان والتتار وصلوا بلاد الشام واستنجد أهلها بملك مصر فسار بجيوشه والتقى مع التتار بعين جالوت فهزمهم وغنم منهم كثيرا وكان بيبرس البندقدارى من أعيان مملكته فساق وراء التتار وطردهم عن بلاده وكان السلطان وعده بحلب ولم يف له فوقعت الوحشة بينهما انتهت بقتل السلطان وتولى بيبرس السلطنة

﴿السلطان بيبرس البندقدارى﴾

وهو من مشاهير ملوك هذه الدولة وهو صاحب الفتوحات العظيمة تولى سنة ٦٥٨ هـ الموافقة سنة ١٢٦٠ أصله تركى اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب وأعتقه ولازالت الاقدار تساعده حتى وصل ماوصل وكان شجاعا يباشر الحروب بنفسه له الوقائع الهائلة مع التتار ثم مع الفرنج وفتح بلاد النوبة ودنقله ولم تفتح قبله مع كثرة الغزوات

وجدد

وجدد عمارة الجامع الازهر بعد ان خرب وانقطعت الخطبة منه مدة طويلة فاعادها كما كانت وله صدقات وأوقاف كثيرة وبنى الجامع الكبير بالحسينية وأكمل عمارة المسجد النبوى من الحريق وغسل الكعبة بماء الورد بيده وبنى المدرسة تجاه البيمارستان (الناصرى) بالقاهرة وقناطر أبى المنجا جهة قليوب وقنطرة السباع أمام السيدة زينب ولما خرج لقتال التتار استفتى العلماء فى أخذ أموال من الرعية للاعانة بها فافتوه الا النووى فانه امتنع وكلمه كلاما شديدا فغضب عليه وأمره بالخروج من الشام فخرج الى بلدة نوى ثم أمر برجوعه فامتنع وقال لا أدخلها والظاهر فيها والظاهر هو أول من رسم موكبى المحمل وكسوة الكعبة بمصر وذلك سنة ٦٧٥ هـ الموافقة لسنة ١٢٧٦ م ومات الظاهر بعد ان حكم ١٧ سنة وكسور وخلف الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد بركة سنة ٦٧٦ هـ الموافقة لسنة ١٦٧٦ م فلم يمكث الا قليلا وخلع سنة ٦٨٧ هـ وخلفه اخوه الملك العادل بدر الدين سلامش فخلع بعد أشهر وبعث به الى الكرد فسجن مع أخيه

﴿الملك المنصور سيف الدين قلاوون الالفى﴾

وهو رأس الدولة القلاونية باعتبار مؤرخى الاسلام ولذلك يسمى بابى الملوك ويسمى بالالفى لانه اشترى بالف دينار وأصله من مماليك الصالح نجم الدين أيوب وكان شهما بطلا منصورا فى حروبه وله محاربات ووقائع كثيرة مع التتار وغزى بلاد النوبة سنة ٦٨٧ هـ الموافقة سنة ١٢٨٨ م وكان له فيها فتوحات عظيمة وعاد منها بغنائم جسيمة وله عمارات كثيرة منها المدرسة المنصورية ونقل الى هذه العمارات أعمدة قلعة الروضة ورخامها وقد أكثر من شراء المماليك الجراكسة وأسكنهم بالقلعة حتى بلغ عددهم ستة آلاف وهو الذى بنى بقلعة الجبل دار النيابة فى سنة ٦٨٧ هـ وكانت تجلس بها النواب الى ان هدمها ابنه الناصر محمد وأبطل النيابة والوزارة فبناها بعده الصالح اسمعيل بن الناصر محمد

ابن قلاوون وفى سنة ٦٧٩ مات المنصور قلاوون وأحدث فى أيامه وظيفة كتابة السر واللعب بالرمح فى موكبى المحمل والكسوة وأبطل عدة مكوس

﴿الملك الاشرف صلاح الدين خليل﴾

تولى بعد موت أبيه سنة ٦٩٠ هـ الموافقة سنة ١٢٩١ م وفى أيامه كانت الحروب قائمة بينه وبين الفرنج فى السواحل الشامية فأجلاهم عنها وفتح عكا وهدمها وجملة حصون وبعد عودته توجه الى قوص ومن هناك سافر الى اليمن والى الكرك ثم عاد الى مصر وفى أيامه بلغ عدد المماليك عشرة آلاف وسمح لهم بالخروج الى داخل البلد نهارا ويبيتون بالقلعة ليلا وفى سنة ٦٩٢ هـ الموافقة لسنة ١٢٩٣ م بنى بالقلعة قصر الاشرفية وعمر أيضا الرفرف وجعله عاليا وصور فيه أمراء الدولة وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان مجلسا يجلس فيه السلطان الى ان هدمه الناصر محمد بن قلاوون والغالب ان محله القصر الابلق (الطوبخانة الآن) وفى سنة ٦٩٣ هـ قتل وسبب ذلك انه كان خرج الى الصيد وساق الى الطرانه فتبعه الامير بيدره ومعه جماعة فقتلوه هناك وحكم بعده وسمى نفسه الملك القاهر فحكم يوما واحدا وقتل ودفن الاشرف بجوار مشهد السيدة نفيسة

﴿الملك الناصر محمد بن قلاوون﴾

تولى سنة ٦٩٣ هـ وعمره تسع سنين فأقيم كفيلا له الامير كتبغا المنصور فقتل قتله الملك الاشرف وقبض على بعضهم وولى عقوبتهم بيبرس الجاشنكير وآل أمرهم الى ان قطعت أيديهم وأرجلهم وعلقت فى أعناقهم وشهروا فى مصر والقاهرة ثم ان مماليك الاشرف أحدثوا فتنة قبض على ثلثمائة نفس منهم وقطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا بباب زويلة ثم ان الامير كتبغا طمع فى الملك فنزع السلطان محمد عن سرير الملك وذلك سنة ٦٩٤ هـ ورجع الى السلطنة وعزل ورجع ثالثا ومكث

حاكما

حاكما حتى مات سنة ٧٤٠ هـ وكانت مدة خلافته سنة ٤٣ دون اعتزاله السلطنة

﴿الملك العادل كتبغا﴾

هو الملك العادل زين الدين المنصورى أصله من مماليك قلاوون وحصل فى أيامه غلاء مفرط لان مد النيل قصر حتى أكل الناس الجيف وفى زمنه وفد على مصر طائفة من المغول فرارا من ملكهم غازان يدعون باسم الاويراتية فانه لما تغلب التتار على ممالك الشرق والعراق وجفل الناس الى مصر نزلوا بالحسينية وعمروا بها المساكن وأيضا أمراء الدولة وصارت من أعظم عمائر القاهرة وكان السلطان كلما نزل من القلعة الى الميدان لم يجد أحد القلة الناس وشغلهم بما هو فيه من الغلاء والوباء واشتد خوفه من الفتنة فاظهر العناية بأمر الاويراتية لانهم كانوا من جنسه وكان مراده ان يكونوا أعوانا له عند الشدائد فخشوا ايقاعه بهم فآل الامر أخيرا بسببهم وبسبب عدم مسيره الى بلاد الشام لمحاربة التتار قيام بعض الامراء عليه فترك الملك وفر هاربا الى دمشق

﴿السلطان حسن بن قلاوون﴾

تولى السلطنة وعمره ١٣ سنة فعهد الى الامير منجك اليوسفى بالوزارة فنقص كثيرا من مصروف الدولة والرواتب ومديده لاخذ الرشوة وصار يولى الوظائف بمال يأخذه ممن يتولاه واشتد تحريق النيل واتفق الرأى على سده من جهة الجيزة لتحويل الماء الى مصر ووكل هذا الامر وزيره منجك فجمع أموالا عظيمة من الرعية وصنع مراكب وشحنها أحجارا ورماها فى مجرى النيل مما يلى بر الجيزة فلم تحصل ثمرة وعزل منجك من الوزارة ثم أعيد اليها ثانيا واشتد ظلمه وجمع أموالا عظيمة وكثرت حوادثه الى ان عزل بالثانى وحمل الى الاسكندرية وسلب ماله ثم أعيد اليه جزء من ماله وفى سنة ٧٤٩ هـ حصل طاعون عم الديار المصرية فخرب البلاد وقتل العباد وفى سنة ٧٥١ جمع السلطان حسن القضاة

والامراء ورشد نفسه وبعد أيام قبض على جماعة من الامراء كان منهم منجك المذكور وحملهم الى الشام فتعصبوا وقاموا عليه سنة ٧٥٢ هـ وكان رأس الفتنة الامير طاز فقبضوا عليه وسجنوه بالقلعة فاقام الى ان أعيد الى السلطنة ثانيا سنة ٧٥٥ هـ فاقام ست سنين وكسور وقتل سنة ٧٦٢ هـ وفى أيامه بنى الجامع المسمى باسمه وجامع شيخون ومدرسته بالرميلة

﴿أبو المعالى زين الدين شعبان﴾

تولى سنة ٧٦٤ هـ ولقب بالملك الاشرف وعمره عشر سنين وكان المتكفل به الامير يلبغا العمرى وفى سنة ٧٦٧ هـ أراد ان يجعل الامير طنبغا الطويل عاملا له على الشام وكان هذا الامير اذ ذاك برأس الوادى فارسل اليه كتابا مع جملة أمراء فلم يمتثل لهذا الامر واتحد مع الامراء المرسلين اليه ورفعوا لواء العصيان فقام يلبغا وحاربهم وانتصر عليهم بالقرب من الجبل الاحمر بجهة تعرف بقبة النصر وقتل منهم خلقا كثيرا وفى هذه السنة وردت مراكب صاحب قبرس الى الاسكندرية فقام عليهم نائب الاسكندرية وحاربهم بمن عنده من العرب والعساكر فهزموه ودخلوا المدينة ونهبوها وقتلوا كثيرا من أهلها ورحلوا عنها قبل وصول عساكر الملك اليهم الواردة من القاهرة وبهذا السبب وكثرة فساد مراكب الفرنج فى البحر وقطعهم طرق التجارة شرع فى انشاء مراكب حربية فلما كملت رحل ليتفرج عليها وعاد الى (الطرانه) بقصد النزهة ونصب بها خيامه وكان مماليك يلبغا قد اتفقوا على قتله فهرب ليلا الى القلعة فتوجه المماليك الى السلطان وأرادوا أن يعينهم فلم يمكنه غير الموافقة ولما بلغ يلبغا ذلك جمع جموعه واستدعى الامير اتوك أخو السلطان ولقبه بالملك المنصور وسار به الى الجزيرة الوسطى والسلطان الاشرف فى بر انبابه وصار يترامون بالنشاب فسار السلطان وطلع القلعة على حين غفلة فلما سمع بذلك أصحاب يلبغا فارقوه أغلبهم وآل الامر بالقبض على

يلبغاوقتلوه وكانت داره هى المعروفة الآن بالحوض المرصود وكانت مدة السلطان زين الدين شعبان كلها ثورات وتعاظم عليه وكانت الحروب بالرميلة وبولاق والجزيرة وجعل للاشراف العمائم الخضر ليمتازوا عن غيرهم وفى سنة ٧٧٨ هـ خرج للحج فلما وصل العقبة قام عليه المماليك فكر راجعا واختفى بالقاهرة الى ان قبض عليه وخنق ووضع بزنبيل وألقى فى بئر وفى أيامه ولى الكثير من أولاد الناس المناصب السامية والوظائف العالية وهو الذى بنى المدرسة الاشرفية تجاه القلعة وهدمت فى زمن السلطان برقوق

﴿زين الدين الملك حاجى﴾

كان عمره وقت تقليده السلطنة عشر سنين فلم يكن له من السلطنة سوى الاسم فقط وكان الامر بيد برقوق الوزير وكانت المملكة فى حالة الاضطراب لان كل أمير كان يريد الرياسة وكثرت العربدة فى البلاد واشتدت نيران الفتن فاتفق برقوق مع خشداشيته وهجم على باب السلسلة الذى هو باب العزب أحد أبواب القلعة واستحضر الخليفة الموجود وهو المتوكل على الله العباسى والقضاة والامراء واتفقوا على خلع الملك الصالح حاجى وتولية برقوق وتقررت بينهم سلطنة برقوق فكانت مدة سلطنته سنة وكسور فكان من تولى من ذرية الناصر اثنى عشر أقام واحدا وأربعين سنة مع ان الناصر محمد بن قلاوون أقام بها أربعا وأربعين سنة ومدتهم جميعا كانت شدائد حتى اشتد الضرر بالناس مع ان فى مدتهم جددت العمارات الكثيرة بمصر والقاهرة

الباب الثالث عشر

﴿دولة الجراكسة﴾

حكمت هذه الدولة سنة ٧٨٤ هـ وانقضت سنة ٩٢٣ هـ وعدد سلاطينهم ٢٢ سلطانا وأولهم برقوق ولنذكر من اشتهر منهم فنقول